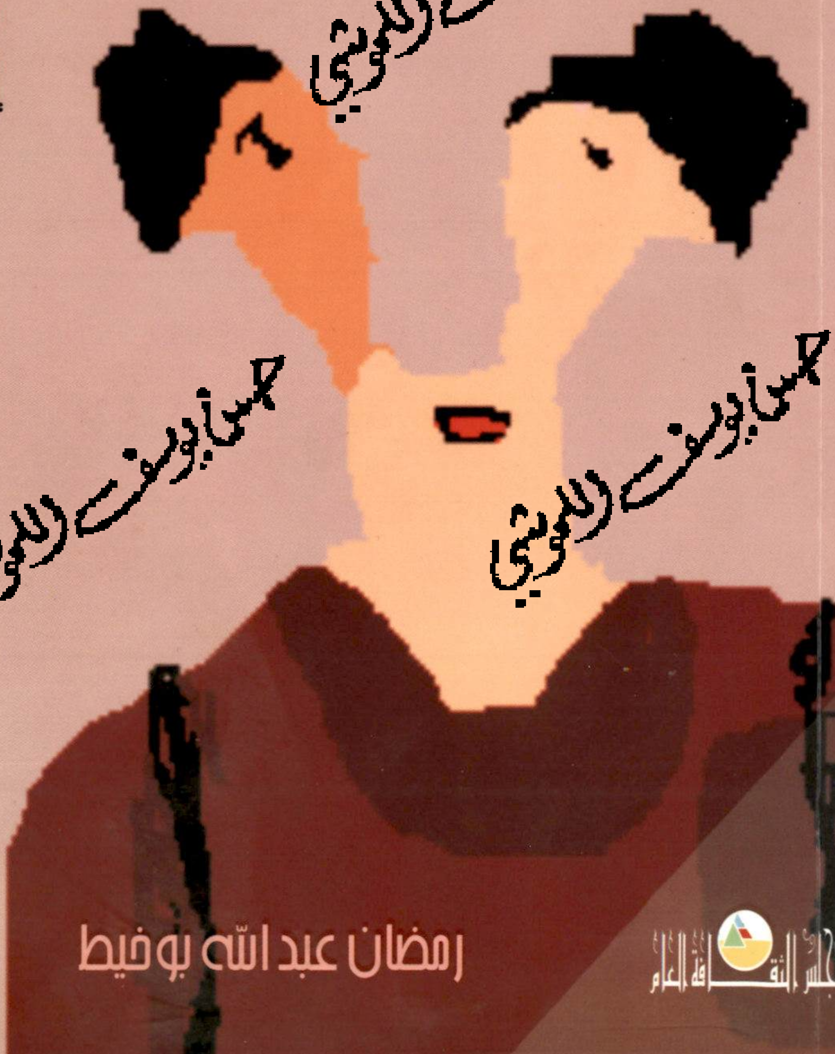
D 2.500

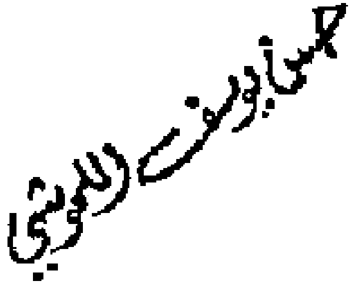
زمن الهواجس

مجموعة قصصية



رمضان عبد الله بوخيط

مجلس الثقافة العام



زمن الهواجس

مجموعة قصصية

زمن الهواجس

مجموعة قصصية

رمضان عبد الله بوخيط

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	زمن الهواجس - مجموعة قصصية
اسم المؤلف	رمضان عبد الله بوخيط
سنة النشر	2006م
رقم الإيداع	6900 / 2006 م
الترقيم الدولي	ISBN - 9959 - 38 - 106 - 4

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	آمال العيادي
التنفيذ الفني	عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

تصـــــدير

لا تســـــلبني بصـــــمة صــــــوتي

في منــــــــــتديات الغــــــــربــان

ولا تحطــم عصـفور الــنار بصــدري

واتـــــركني في ركـــــن المســــــتهدف

واحــــــــــم لهـــــــــــاثــــي

مـــــن غوغــــــاء الغــــــربــان

فأنــــــا لســــــت مــــــثقــف

لا يشـــغله إلا أن يـــبدو في شاشـــات ...

العــــــرض حزيــــــنا أو مـــــتأفف

قـــل يـــامولاي لهـــذا الجمـــع المقــرف

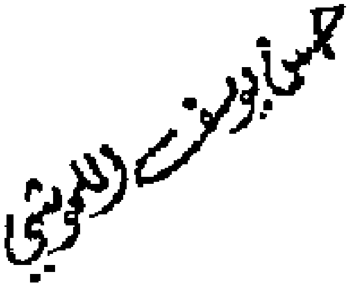
إن الشـــعب تعـــالى، لـــن يغفـــر أبـــدا

لـــلمومس .. أو للنصـــاب المتفلســـف

من قصيدة بعنوان : عمر من الوهم الجميل

للشاعر / محمد مهران السيد

زمن الهواجس



- 1 -

الذكـرى هــي النسـخة الباهـتة لحـدث مـا ... لا تـنمو في الوجدان إلا بعد انقضاء الحدث وانـتهاء صداه ... هي الماضي عندما نجـره من جديـد بسحبه من أغـواره وإلقائـه في أحضان الحاضر، نلوكه بأحاسيسنا أثناء عملية الاجترار العقلي ليظهر كحقـيقة عبر تخـيله ... عكس الـثقافة الـتي هـي إعـادة إنـتاج للقيمة الفكرية وليست تكرارا لذلك الفعل المشخص بذاته.

كان أحمد رمضان، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، قد فرغ لتوه من إنهاء قراءة صفحات رواية (سيرة عربي) ... ضغط على جفني عينيه، الآن وقد تعدى الستين من عمره فيما يقلب في أوراقه القديمة في حجرته المطلة نافذتها على الطريق العام المحاذي لشاطئ البحر بحي المدينة القديم ... مسجلا ومراجعا بعضاً من هذه الذكريات الـتي تضغط عليه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، يتفحص الكلمات ... الكلمات الـتي أمسك بها الوجع ... الكلمات المنثورة على الورق المسلوبة الإرادة ... الكلمات المعتدى عليها والمقيدة لخدمة أهداف غير نبيلة ...

الكلمات عندما تجمع من شظايا الحروف وتقدم في جمل مزينة بألوان النفاق لسيد متكبر يخدم بها مصالحه أو يعلقها على أقواس النصر أو الهزيمة ... الكلمات وهي تسخر.. تحب وتكره .. تقترب وتبتعد ... تجادل بعضها من خلال جامعيها من العلماء والفلاسفة والفقهاء ... هذه الكلمات تستلقي بين الأوراق في انتظار صباح يوم آخر ترتقب ... تخاف أن ترد السلام وهي تردد أن هذا الصبح لم يأت بعد.

سالت دمعة حارة من عينيه الغائرتين، هذه العيون التي التمعت كثيرا وهي تحدق في القمر... الآن قد وهنت من الحزن على هذه الكلمات الملقاة على حوافي أوراقه المتناثرة وقد استسلمت لهذا الأمر بعد أن تعبت وداستها أرجل التاريخ الطويل وبقى أغلبها مختفيا تحت التراب .

هذه السكنية الدامعة تعطي نوعا من الصدق مع النفس عندما تتكاثر المعاني وتنقشع العتمة ويزداد الضوء ... الآن مشتاق أن يجمع هذه الكلمات المخبأة أحداثها في الذاكرة ليصوغ منها الحقيقة والتاريخ ... كتب: إنه رفض للذين ينطقون بـ (نعم) بإيماءة من رؤوسهم ويقبلون بما هو واقع ومفروض، وتسمية الأشياء بأسمائها من خلال نص جيد هي بمثابة حديث هادي وممتع مع ذ الناس الشرفاء.

استحضر صور الرفاق الذين تسربوا مثل مياه الأمطار عبر شقوق الأرض العطشى، منهم من نام هناك في المقابر البعيدة وآخرون قد تدثروا بعباءة الدين هروبا من انكسارات الواقع وفريق ثالث وضع يده على فمه تجنبا للهواء البارد أن يصيب أسنانه الناصعة البياض.

في هذه الليلة المشحونة بأفكار القمع والتسامح، تذكر صديقه محمود المهدي الذي نشأ في قرية تبعد عن المدينة عشرين كيلو متراً حيث عاش في بيت به عدة أعمام ممن حفظوا القرآن وهو ما جعله أثناء التحاقه بالمدرسة الثانوية بالمدينة، مبتعدا عن الحركات السياسية المنخرط فيها أغلب طلاب المدرسة، معلقا على تلك الأفكار.

لا بد أن يكون هناك عصر جميل يتغلب على هذه النزعة العدمية بالإيمان والتسامح تجعل الإنسان يلتقي بأخيه الإنسان في حياة لا زيف فيها ... القمع والتسامح خصمان لا يجتمعان إلا صرع أحدهما الآخر.. مع الأسف تحققت هذه المقولة في بلاد الشرق!

تذكر هذا الحوار بينما كان واقفا مع صديقه محمود المهدي أمام رصيف مقهى العصافير، وهو ينظر إلى أحدهم يترجل من سيارته الجديدة:

- أنا أعرف أن المال لا يمكن أن ينمو بهذه السرعة، بلا غش التفت محمود إلى صاحب السيارة وفهم الإشارة، عقب على ذلك:

- لا زلت أراهن على الصيت .

- لكن الزمن دائم التقلب .

- أحيانا يأتيك الخير طائعا حتى في الأزقة المهجورة !

- لكن لا أمل في الإنسان إذا ضاع صيته .

أشعل أحمد رمضان لفافته العاشرة على صوت آذان الفجر... وقف في مواجهة النافذة منصتا لوشوشات مياه البحر وهي تداعب حصاة الشط ... نفث نفسا طويلا ... سبح مع ذكرياته:

- الله يرحمك يا محمود يا مهدي، هذا زمن محشو بقصاصات أخبار الصحف الباهتة ونشرات الهزائم المذلة وبالكتب الكاذبة ... قال محمود مرة:

- الإنسان في صباه لا يخشى النطق بالحقيقة لكن كلما طال عمره يجبن عن قولها.

سأله مرة:

- لماذا لا تترك القرية وتسكن بالمدينة؟

رد بتلقائية:

- عندما يعيش الإنسان لا بد أن يخضع أو يوافق على ما يقضي به مسئوولو تلك المدينة، عكس المعيشة في البرية أو في أعالي الجبال البعيدة هنالك يعارك الطبيعة والوحوش البرية بعيدا عن المدينة بما تمثله من رعب متعدد الوجوه .

علق أحمد رمضان حينها:

- لكن الإنسان يدفع الثمن غاليا بحرمانه من متع ومعارف الحياة الكثيرة.

عندما التحق محمود المهدي بثانوية المدينة كثيرا ما تجنب دعوة رفاق مدرسته لاستضافته معتذرا بأدب ... أثناء وقوفه بمحطة الحافلات فيما يهمس لي بخجل:

- هناك ناس يولدون بحساسية مفرطة ... أحيانا تصل حد التعفف في قبول رغيف من يد خوفا أن يكون ملوثا بمال تحصل عليه أحدهم بطرق غير نظيفة!

كانت لـه تلقائية تعادل روح الطفولة ... أحيانا دون أن تلغي ذلك الحضور المكثف لشخصيته. أثناء التحضير للتظاهر وتوزيع المنشورات في عام 1964 ساهم مع مجموعة من الطلبة ... قبض عليه ومكث أشهر في (زنزانة) رطبه بذلك السجن القديم المطل على شاطئ البحر عندما أفرج عنه كانت رئتاه قد تورمتا من الرطوبة العطنة توفى بسببها ودفن في قريته التي تبعد عشرين كيلو متراً عن المدينة .

- 2 -

في هذا الفصل الشتائي وهو يحتسي قهوته بدأت أحداث الماضي تطفو على سطح ذاكرته التي أرهقتها طول المعاناة ودون خجل مفتعل خاطب نفسه ذاكرا :

-(حتى من خلال الصمت تقال أشياء ...)

التقط من بين أوراقه المبعثرة رسالة كتبها لأحد الرفاق الذين تسربوا مثل مياه الأمطار ... أعاد قراءتها:

- شتاء المدينة يوازي شتاء العمر ... المدينة شاخت مثل أعمارنا ... تساقط الشعر وتهشمت الطرق وتهاوت جدران البيوت كما انحصرت الوجوه الطيبة واختفت وجوه الرجال ...

لم يبق إلا الاستمتاع بتذكر الحكايات القديمة والبحث فيها عن بطولاتنا وخيباتنا. واصل القراءة بصوت عال:

- عندما أقدم إليك عبر الشوارع الضيقة وأنا أركل الحجر من تحت الأتربة كأنني أوقظ الكلمات المدفونة من الوجع، وأنط فوق الصخر مثل أرنب برية تعبث بالعشب المخضوض، حيث أصل إليك وأنت في (ورشتك) تقطع الحديد وتسويه على آلة الخراطة وتدقه بالمطرقة لتصنع منه الزخارف والشبابيك وأرفف المكتبات للبيوت الطينية ... أتذكر حديثك وأنت تعمل:

- "حتى الحديد أسمعه يشتكي لم يعد يطلبه أحد هذه الأيام لصنع أرفف المكتبات ... أسياخ الحديد اليوم باتت تزين نوافذ البيوت فهي تشبه نوافذ السجن" ... أتحسس يدك عندما نتصافح أشعر بخشونتها ... تعلق ساخرا ... هذه اليد يحبها الله ... اليوم الأيدي ناعمة تشبه أيادي النساء ... أيادي الجيل الجديد انخرطت في تلميع سيارات الأكابر الجدد والوقوف على نواصي الشوارع الملمعة للثرثرة أو الجلوس في أركان المقاهي لمشاهدة الفضائيات العارية.

تذكر لقاءه الأخير مع صديقه حسين عثمان، ذلك الصباح ... فاجأه بقوله:

- ستأتي غدا تجد (الورشة) مقفلة ... قد لا نجتمع بعدها !!

خرج من بيته وقد تزاحمت الصور والأفكار...

- الحلم مثل الوهم ... الفرق أن الإنسان يعيش سعيدا بحلمه... غير أن قلب من وصل للستين من عمره لا بد أن يكون ممتلئاً بالشروخ والتجارب ... زفر بصوت عال:

- (غالبا ما يحار الإنسان بين صفاء السماء وطين الأرض اللازب) عندما وصل قرب سور المقبرة القديمة المطلة فوق الربوة شاهد على السور عبارة مكتوبة بخط رديء لكنه واضح تقول:

- (زمان قيمة الإنسان تقاس بما يعرف ... الآن قيمة الإنسان بما يملك).

عند نهاية سور المقبرة تذكر (البهلول) يردد له كلما قابله:

- هناك رجال تعد ثروتهم بعدد الكتب وليس بعدد أوراق النقد. البهلول هذا له هيئة وحشية، لكنه لم يعارك أحدا كما لم يلاطف أحدا ... اعتاد عليه سكان الحي هكذا ... وجهه يميل إلى لون الرماد من كثرة مكوثه طيلة الوقت في عين المخبز... لعناته ذات مذاق خاص، عندما يعاكسه الصبيان أو ينهره الكبار تسمعه يردد بصوت عال:

- (كل الطغاة مصابون بلوثة عقلية).

- (اسأل الوجوه ولا تستمع إلى الألسنة).

- (لا تبنِ قصراً من الظنون على كلمة يطلقها حاكم).

- في المدة الأخيرة لم يعد يقابله ... سمع الفقي "موسى" يقول:

- البهلول أودع السجن بوشاية أخته عازة (التقازة)!

انتبه أحمد رمضان وقد وصل مبنى البريد ... أسقط الرسالة الموجهة لصديقه حسين عثمان في صندوق الرسائل الخارجية وقفل راجعا لبيته.

- 3 -

في مساء اليوم التالي، كعادته هذه الأيام، وهو يقلب في أوراقه القديمة سحب ورقة بيضاء ... دون فيها: الصديق العزيز: حسين عثمان ... في ذلك الصباح المشمس انتظرتك في ركن المقهى المطل على ناصية الشارع، أرتشف قهوتي الصباحية وأنا أرقب طلبة المدارس وهم يعبرون أمامي يتصايحون كالطيور تغادر أعشاشها من فوق تلك الشجرة على أثر صوت منبه سيارة مسرعة .. ذلك الصباح لم تأت في الموعد. بعد الظهر

وجدت الورشة مقفلة ... علمت أنك غادرت البلد، هكذا فجأة ... ومرت شهور وأعوام وانقطعت أخبارك كما لم أعد ألتقي بأحد، وتلك الشجرة اقتلعت من مكانها وهاجرت الطيور بعيدا فيما غادر أغلب الطلبة مدارسهم إلى أعمال أخرى ... المقهى تحول إلى محل لبيع سلع مؤسسة التسويق الجديدة ... في إحدى المكالمات طلبت مني أن ألحق بك في بلاد الغربة ... رددت عليك عبر الهاتف:... الدنيا تساوت بالنسبة لي ... الفرق الوحيد أنني أحلم هنا في مدينتي ... أحلم بالعصافير... وبالرفاق الذين غادروا وتسربوا في شقوق الأرض ... وأعود أحيانا إلى رسائلك ... وها أنا ألخص لك إحداها: ... العناد ليس غريبا عليك ... أعرف أنك من سلالة شاعر معاند اسمه (ناظم حكمت) .. كان ردي عليك حينها مستشهدا بحكاية لجدي عندما رجاه والدي، ونحن نجهز أمتعتنا لنغادر بيتنا المطل على البحر قرب الميناء بعد ليلة دكت فيها سفن الحلفاء الميناء قرب نهاية الحرب، حيث أصر جدي بلهجة قاطعة:

"لا أغادر بيتي أبدا ... إذا كنتم تخافون الموت هاجروا مثل بقية السكان، وهو ينظر إلى جدران البيت: لقد تساوت لدي الأمور... الأعمار بيد الله إذا قدر لي الموت فليكن هنا

داخل بيتي. أذكر أنك علقت على رسالتي تلك برسالة تحمل، طبعا نفس سخريتك السابقة: لا يرحب بالموت أحدا إلا (دماغ) تركي مثل جدك ! الآن أدون لك بعد طول انقطاع لأخبرك أن معظم الناس اليوم يتجنبون مشاهدة صور الموت والقتل في نشرات الأخبار... يعلق أحدهم عادة: ... أبعد عنا هذا النكد دعنا نشاهد محطة تريح أعصابنا ! لا أنسى حوارنا عندما انتشر الموت في ذلك الصيف الحزين سمعت صوتك المتهدج عبر الهاتف:

- من مدن الثلج أخاطبك وأنا أشاهد اجتياح العدو لإحدى (مدن الملح) ... في هذا الشهر اللعين ... شهر القهر... أذكر أنني رددت عليك :

- إنه الشهر الذي يموت فيه الفقراء والشعراء ... الشهر الذي قرر فيه (خليل حاوي) إنهاء حياته رافضا رؤية قوات العدو وهي تدخل مدينته ولسان حاله يقول (بيدي لا بيد عمرو) ومن شرفته أطلق صرخته محتجا :

- كل ما أعرفه أني أموت ...

- مضغة تافهة في جوف حوت ...

تلك كانت ثقافة ومواقف ذلك الجيل لها لون واضح تراه في اللوحة التشكيلية أو تقرؤه في قصيدة شعرية أو في رواية أو قصة بإبداع إنساني دون زخرفة بعيدا عن نرجسية المناخ البرجوازي ... انتصف الليل وسقط القلم من يده فاستسلم لنوم عميق ... في الصباح استرجع هواجسه، وبين الحلم والصحو أكمل كتابة الرسالة :

- في صباح ذاك اليوم البعيد، أتذكر، عندما دخل ناظر مدرستنا الفصل ومعه مشرف تلك المدرسة الخاصة بأبناء الجالية اليهودية ... أشار المشرف لكلينا فيما أمرنا المدير بالخروج والوقوف أمام باب الإدارة تفاجأنا عندما وجدنا بقية رفاقنا المشاركين في مشاجراتنا مع الصبية اليهود، واقفين أمام إدارة المدرسة حينها أدركت أن هذا المشرف اليهودي كان يراقبنا بدقة كل صباح، ونحن نعترض الطلبة اليهود وهم في طريقهم إلى مدرستهم القريبة من حينا بالأيدي وبالحجارة ... عقاب الناظر في ذلك اليوم كان شديدا ... تلقى كل واحد منا عشرة جلدات من عصاة الناظر الخيزرانية بعدها حجزنا في حجرة خالية ... دخل أحد المدرسين وأعطى كل واحد كراسة وقلما. خط على سبورة الحجرة بيتا من الشعر: "لا تظلم ... فإن الظلم مرتعه وخيم".

أمرنا أن نكرر كتابة هذا البيت مائة مرة. بعد سنة من تلك الواقعة وبالتحديد في سنة 1948 وقف مدير مدرستنا أمام طابور الصباح وهو متجهم الوجه وخاطبنا بصوت جهوري: أرجعوا إلى بيوتكم ... اليوم اعترف العالم بدولة إسرائيل ... في طريق عودتنا إلى بيوتنا صامتين غيرنا خط سيرنا المعتاد متجهين هذه المرة إلى شارع عمر المختار وفي مخيلتنا ذلك العجوز اليهودي بائع الحلوى وكيف ينظر في وجوهنا حينما نقترب منه صارخا: (حلوى طروني)، لم يكن لأي واحد حينها قدرة الحصول عليها، وفيما نحن نقف في مواجهته تقدم أكبرنا سنا وطوق بيديه عنق العجوز اليهودي ... عندها امتدت أيدينا لغطاء الصندوق الزجاجي والتقط كل واحد منا قطعة الحلوى ... انطلقنا نواصل الجري عبر شارع عمر المختار نهتف: "فلسطين عربية" ...

- 4 -

كعادته هذه الأيام عند النوم يضع فوق شاربه الكث خرقة مغطوسة بمعجون الحناء ليخفي الشعيرات البيض التي بدأت تغزوه ... في الصباح يمسد شاربه الطويل بماء العنبر أمام المرآة ... بعد أن يحتسي قهوته ويسحب أوراقه المبعثرة ليراجع

ما دونه في المساء: ... ذلك الصباح مررت أمام مقهى العصافير، المحاذي لمبنى الجامعة ... أطلق عليه رجال المباحث في الستينيات "المقهى المشبوه" أغلب رواده من رموز الحركة العمالية وبعض المثقفين وطلاب الجامعة وهم يتصدرون مقاعدهم تحت أقواس الشارع المكتظ برواده من مختلف ألوان الطيف ... في أمسيات الصيف الحارة تعلوا أصواتهم منتقدة ما تصدره الصحف والدوريات في تلك الحقبة من دراسات أدبية ونقدية ... يتحول المقهى إلى منتدى ثقافي يتبادل رواده الصحف والدوريات فيما بينهم مثل الأطفال يتباهون بألعابهم عندما يقدمونها لأقرانهم كي يفرحوا بلمسها ومداعبتها بأصابعهم الرقيقة ... هكذا حال هؤلاء المثقفين يتبادلون الكتب بكل أريحية وكرم يسعدون بقراءتها ترى وجوههم فرحة بهذه الهدايا المتبادلة .

عند الغروب فيما السماء توشحت بلونها الرصاصي تحاول شد أسلاك نور الشمس الذهبي ... أخيرا يصرعها موج البحر فتغطس في مياهه، عندها يغادر أغلب رواد المقهى مقاعدهم مواصلين نقاشاتهم وسهراتهم بعيدا عن أعين المراقبة، من بين هؤلاء كان حسين عثمان النقابي يلتحق بمبنى الحركة

العمالية يستمع إلى أحد رموزها مخاطبا رفاقه (البحارة) مرددا على أسماعهم حكمته المكررة دائما هكذا:

- أجدادنا تعلموا ركوب الخيل وهزموا الطليان ونحن علينا أن نتعلم السباحة جيدا كي لا نغرق في مصائد البحر!!

- قال عنهم حسين عثمان مرة :

- هؤلاء البحارة لا يملكون من حطام الدنيا إلا (بدلتين) واحدة للصيف وأخرى للشتاء غير أنهم تصدوا بالإضراب عن تفريغ السفن الغربية عندما رست في الميناء احتجاجا على حجز السفينة العربية (كليوباترا) بحجة أنها تحمل أسلحة للمقاومة الجزائرية ...

هؤلاء البحارة تعلمنا منهم العطاء الوفير الذي قدموه للوطن ... أنهى الرسالة وكتب العنوان على الغلاف ... خرج مسرعا كعادته وبالقرب من مبنى الجامعة التفت إلى أقواس الشارع ونظر بسخرية إلى مكان المقهى الذي تحول إلى فندق ضخم يعج برواده الجالسين الآن خلف زجاج النوافذ وهم يعقدون الصفقات مع الوكلاء الجدد... لا يعرفون البذل لكنهم يتنافسون بالتسلق والتباهي بالإسراف لإبراز وجودهم في المجتمع ملوحين بمسابحهم الذهبية ... أفرزتهم حقبة زيادة

أسعار النفط ... لونت أخلاقهم بمصالح ضيقة وتعصب (شوفيني) ... هذا الخليط من متعهدي حقول النفط ومهندسين ومحامين وموظفين بيروقراطيين وأكاديميي جامعات ومثقفين حداثويين ... هذه الفئات شكلت تحالفا جديدا وأسست ثقافة بعيدة عن الهوية الوطنية بأخرى مع كبار الطبقة الجديدة التي تقيم الوطن بالمال فقط ...

وصل مبنى البريد وأسقط رسالته ودلف راجعا إلى حيه عبر شوارع المدينة القديمة متجنبا بعض الوجوه التي مر بها أمام مكان ذلك المقهى القديم (الذي لم يعد مشبوها) ...

دخل بيته وارتمى على كرسيه المفضل قرب النافذة ومن شدة التعب أغمض عينيه مجريا مقاربة مع حكايات العمة (عازة التقازة) التي كانت تقطن خلف شارعه .

- 5 -

يقال إن اسمها اكتسبته من مزاولتها لمهنة استنطاق الودع ... ذاع صيتها في الحي كله خاصة في معالجة العقم وهجران الأزواج ... لها وصفة سحرية خاصة أسمتها (أفواه الغابة) وهي مجموعة من أعشاب الغابة الخضراء تطلب من المرأة السائلة أن تحضرها مع (حارة) من بيض يوم الخميس ...

تعجن الأعشاب الطرية مع صفار البيض وتقدم الخلطة للمرأة طالبة منها أن تطعمه لزوجها قبل النوم على مدى سبعة أيام تبدأ بليلة الخميس وتختم كلامها للسائلة:

- لا مانع من أن تأخذي منه ملعقة أو ملعقتين فيما ترمي البخور على جمر (الكانون) وهي تردد بصوت خافت:

- "الأصل يونس ... عتب ونواصي وبعض من الذرية"

تنظر في وجه المرأة وتواصل الكلام :

- "رزق الحلال يرق وما ينقطع والذوقة تقرب الصاحب"

تتعجب المرأة متساءلة:

- من أين حفظت هذا الكلام الجميل، الفقي موسى لا ينطق بهذا الكلام؟

تجيب عارة التقازه وهي تحدق في محدثتها :

- من فم جدي ... كان دائما يقرأ في كتاب كبير لونه أصفر كنت وأخي البهلول من خلف باب داره ننصت له وهو يقرأ بصوت عال حتى حفظت كلام جدي.

تتنهد عارة التقازة بحسرة وتواصل حكاياتها :

- بعد وفاة جدي جمع أخي البهلول كل الكتب وأعطاها لصديقه مسعود الخباز الذي رماها في عين المخبز ومن يومها والبهلول يسرح في المقبرة القديمة وعند الليل يدلف إلى عين المخبز لينام هناك مبتعدا عن صبيان الحي ومعاكساتهم له، في الصباح يطوف حول سور المقبرة يخط على حيطانها ما حفظه عن جده وأخيرا سمعت من صديقه مسعود الخباز أن الفقي موسى هو الذي أبلغ عنه الحكومة ومن يومها اختفى أخي البهلول .

لكن المرأة تقاطعها سائلة :

- لكن بعض النسوة يتحدثن عن الفقي موسى أنه قد شفي (عزيزة) زوجة ضابط السجن من العقم ...

تجيب عازة التقازة بغضب :

- لا تعتقدي في رجل ضائع يعلمك الدين ويقودك إلى الخير ...

ثم تواصل حديثها :

- المرأة ما دامت تعشق زوجها لا بد أن تلد له " العشق يولد المحبة والمودة والأطفال أيضا " .

سرت إشاعة في الحي عن رجل غريب الملبس يتردد على بيت العمة عازة التقازة ادعت إحداهن أنها اصطدمت به في الممر الضيق المؤدي إلى بيت العمة عازة وتعلق أخرى أنها دخلت بيت العمة عازة فجأة فوجدته عندها تحدثه ضاحكة بصوت عال .. عرف بعدها أن ذلك الرجل الغريب كان هو ضابط السجن عندما قام البهلول بطرده من البيت لفق له سرقة أضرحة المقبرة، وعزز ذلك بشهادة الفقيه موسى الذي أفاد بأنه رآه وهو يخط على سور المقبرة تلك العبارات المخالفة للشرع ... عوقب على أثرها بالسجن لمدة ثمانية أشهر... ومن يومها أصبح الفقيه موسى مقيما بالخلوة يقوم بتحفيظ القرآن لبعض من صبيان الحي حيث يعرضون عليه ألواحهم الخشبية عصر كل يوم فيما الشمس تزاور عن الكوة في أعلى جدار الخلوة لا يغادرها إلا إذا استدعاه أحد سكان الحي لتجهيز أحد الموتى في الجوار ودفنه ... كان لا يمانع في تقاضي أتعابه كصدقة من أهل الميت .. ونحن صغار كنا نخاف أن نقترب من تلك الحجرة التي بها عدة الموتى عملا بنصيحة مؤذن الجامع ميلاد الحوات ملوحا لنا بيده اليمنى المبتورة من منتصفها قيل إنه فقدها صباح عيد أضحى على شاطئ البحر عندما كان يجهز عبوة ناسفة يصطاد بها الحوت ومن يومها لم يقترب من شاطئ

البحر خوفا من الوشاية به كما حدث للبهلول وهو يسأله بعد خروجه من السجن فيما يتسامران قرب بوابة المقبرة :

- البقاء في السجن مدة طويلة يصيبك بأمراض منها ضعف النظر...

- كيف يحدث ذلك؟ يهمس البهلول له وهو يتلفت :

- أينما تنظر حولك تصدك الجدران العالية من كل مكان وتسقط أسنانك سريعا من كثرة الصمت وقلة وهج الشمس على وجهك.

يواصل البهلول شارحا له وهو ينظر إلى جدار السجن :

- أخيرا تصاب بالقرحة داخل السجن لأنك لا تستطيع أن تفرغ شحنة الغضب والتعبير عن مشاعرك وهكذا تتمزق أعصابك وتسكنك القرحة القاتلة ... كذلك تشعر أن شمس السجن باردة لا تدفئ الإنسان بسبب حيطان السجن العالية فهي تحرمهم من دفء الشمس.

ويسأل ميلاد الحوات صديقه البهلول بلهفة عن النزلاء:

- أكثر نزلاء السجن خياليون وحالمون مثل الشعراء لا يكتبون الشعر بل يعيشونه وجدت أحد المحتالين يخط على

جدران زنزانته شعرا:

يكفي أن يعرف أعداؤك ماذا تقرأ

كي تؤخذ في الليل بغرة ...

ما من شيء في البلاد حرا، غير الطهر ...

إغفاء الديكة

يظهر أن سكان هذه البلدة لا يربون الديوك ... علامة الصبح عندهم، نهيق الحمير لتخبرهم بمولد الصبح. تجاوبت الحمير مع بعضها هنيئة ... ثمة صمت في الخارج، عرف أن الصباح بدأ يحبو على ظهر الأرض الندية، لحظات وسمع زقزقة الطيور وهي تتقافز فوق أغصان الشجيرات الملتفة حول الحائط الإسمنتي، الذي يسيج هذه الحجرات الباردة .

في إحداها يتلوى على السرير الحديدي البارد، من الجوع والألم، حين فاجأه نهيق الحمير مختلطا مع زقزقة الطيور، فيما كان يدلي برجليه على حافة السرير، تنهد بصوت عال مخاطبا فضاء الحجرة:

- مثل كل الأشياء في حياتنا حيث يوجد الإنسان يوجد الآخر .

أخذ الألم يقرصه في كل موضع من جسمه وبكل حواسه أنصت إلى نقرات المطر على لوح النافذة الخشبي أعلى جدار الحجرة (نزعت ألواح الزجاج وثبت بدلها ألواح من الخشب)

كي لا تراه الشمس فتخبر عنه، توقف نقر المطر على خشب النافذة، فيما سكنت الريح وهدأت شقشقة الطيور علامة أن الصبح بدأ يتمطى زاحفا فوق الأرض.

فجأة أرتج الباب وأطل الحارس يمد له صحن الفطور آمرا بصوت أجش :

- قم وأفطر... مد يده ممسكا بحافة الصحن وبالأخرى تحسس قطعة الخبز المدفونة تحت الوسادة ... بدأ يفتت قطعة الخبز في الصحن ويلوكها بين أسنانه من أجل إيقاظ حواسه الجسدية والذهنية مرددا :

- هذا هو الإنسان والآخر، الحروب الخارجية تتوقف وأحيانا تنتهي ويتصالح الأعداء، لكن حروب الداخل لا تتوقف ... وسرح بذهنه: ونحن صغار كنا نقفز من على سور المقبرة ظهيرة كل يوم جمعة ... ندس أصابعنا الرقيقة ننبش في قبور الموتى بحثا عن نقود تخفيها النسوة في جنبات هذه القبور القديمة تبركا وزلفى ... نتقاسم هذه النقود ونذهب ظهر يوم السبت لدار العرض المقامة في ميدان البلدية وهناك نتزاحم مع أبناء اليهود، في داخل الدارة تنتهي الفرجة بالشغب والعراك ويتم طردنا من قبل مشرف صالة العرض، كان ذلك يحدث في

الخمسينات ... في سنوات الصبا ... سنوات الحماس. هذا الحماس انطفأ بعد عام 67. انتبه على صوت الحارس يطلب منه الاستعداد للذهاب إلى المحقق الذي واجهه :

- ما هي هويتك؟ ... أنا عربي اشتراكي ... رد المحقق يصحح:

- أقصد ما هي حيثيتك ... أعني قبيلتك؟ ... أطرق يهمس:

- العصر الجاهلي باق ... تغيرت الملابس فقط ... انتبه على صوت المحقق يسأله مرة أخرى:

- ما هي مشكلتك؟ ... تكلم ...

- يا سيدي إن بعضهم يتجاهل الواقع ويتعسف في تطبيق رؤيته ... يرمون الواقع في الوهم طالبين من الناس أن ينظموا مع شياطينهم.

- كيف يكون ذلك؟ عقب المحقق وهو يتفرس في وجهه:

- لهم قدرة عجيبة بالقفز فوق الواقع وإدعاء الحقيقة بدون الشعور بالخجل ... وفي النهاية يتحولون إلى وحوش تدمر كل شيء جميل.

نظر المحقق إليه باستغراب ممزوج بغضب ... أقفل

المحضر وغادر الحجرة يائسا ... رجع به الحرس إلى حجرته الباردة ... استلقى على سريره وذهب في نوم عميق .

انتبه على صوت طرق شديد على الباب ... رأى عين الحارس تطل من فتحة صغيرة في وسط الباب :

- جهز نفسك للذهاب للمحقق .

سأله المحقق للمرة الثانية:

- أما زلت مصرا على أنك عربي اشتراكي وتهذي بنفس الحديث بأنهم يجرون الناس وراء شياطينهم .

تراجع عن مواقفه المتصلبة مجيبا باقتضاب :

- الجهل بالأشياء أحيانا، أفضل من معرفتها .

علق المحقق وهو يقلب ملفا بين يديه :

- ماذا تقصد بهذا القول ؟

- أعني أن الإنسان السعيد هو الذي يفقد ذاكرته، ألم تقرأ قول المتنبي:

أفاضل الناس أغراض لذي الزمن ...

يخلو من الهم أخلاهم من الفطن .

ابتسم المحقق معلقا :

- هكذا إذا، يمكنك أن تترك قضايا الناس وتهتم بحياتك فقط.

شعر بأن المحقق بدأ يتعاطف معه وكأنه يبحث له عن مخرج بعد طول فترة الحجز هذه.

قلب المحقق في أوراق الملف ثم توقف ليقرأ بصوت مسموع:

- "... السجن ظاهرة يهتم بها بعض الباحثين من جهة وتغري رواد الأدب من جهة أخرى بما يوحي لهم السجن من مخزون إنساني مليء بالشقاء والمعاناة ... وهو مختبر تظهر فيه أكثر الحلول تناقضا بما فيه من تأزم للعلاقات الإنسانية الحادة وبرؤية الكاتب الخاصة يستطيع صياغة هذه العلاقات من جديد في عمل أدبي متميز يساهم به في تحسين حياة الناس من خلال نقده للقوانين الجائرة وبالإطلاع على ما كتبه كبار الروائيين أمثال (بلزاك ودكنز وهوجو وجورج أمادو) وهذا الأخير الذي كشف بواقعية مدهشة تلك المعاناة دون السقوط في الالتزام الرخيص ..." .

تطلع المحقق في وجهه مستفسرا:

- نعم ... كتبت هذا المقال عن تاريخ السجون في العالم من خلال إطلاعاتي ...

توقف المحقق ثم سحب قصاصة صحيفة قديمة من الملف وقرأ العنوان: "العصر الدكاكيني" ... واصل مسترسلا :

- تقول لي ... أنت ماذا فعلت بهذه الفوضى من حولك، أقول لك بالنسبة لي تساوت الأمور أنظر إليهم من ثقب الإبرة وهم يتزاحمون في تقبيل أيادي الأسياد الجدد حليقي اللحى ... ساكني الأحياء الجديدة ... يطلق عليها بعضهم (بيوت حديثي النعمة) ... تأدبا ... منهم الثوري الذي يسخر من معادلة الكسب والخسارة ومنهم من لا يفوته وقت في الجامع ولا تفوته سلعة تنزل إلى السوق يتنافس مع السمسار القديم وهو يلوح في وجه الزبون، بمسبحته، مرددا " لا تجد سعرا أقل من هذا " ... اتفقوا جميعا على سلب الوطن وجعله سلعة تتداول بينهم.

حدق المحقق فيه ثم أكمل قراءة القصاصة:

- هناك إله جديد يسمونه إله السوق يبيع لهم كل شيء من أحدث المبتكرات إلى أحدث الأخلاق الجديدة ... تراهم في منتديات الأفراح والمآتم وتجدهم مسحورين أمام الشاشات ... في هذا الزمن الذي أصبح الاقتصاد يعاني تضخم نقدي مثلما تعاني الثقافة

والسياسة تضخم لفظي ... الآن تسألني ماذا فعلت أقول لك: أصبحت مدمنا على كتب لا تباع في مكتبات المدينة أتعاطاها مثل (القات) الذي يمتص لعابه اللزج في صمت مهيب وهو يشاهد الوطن وقد ارتهن في المصارف عن طريق كبار رجال الدولة وجهابذة المخبرين والوزراء والتجار وحلفائهم الجدد وقد طوقوا الحدود بالأسلاك لا يدخل شيء إلا بموافقتهم وضمان حقهم ... هذا العصر الدكاكيني كل شيء بثمن ... اللحم الأحمر مثل اللحم الأبيض كل يوم بسعر كل شيء متصدع لا تقدر أن ترمم شيئا ... حتى السحب محملة بغيث كاذب ... سحب سوداء وصفراء تسقط على الأرض بدون ماء ... الناس لا تريد المطر في المدينة فهي تنهش في لحم بعضها وتأكله حيا ...

نظر المحقق مشدوها في وجهه قائلا:

- هل هذه مقالاتك وقصصك ؟

- نعم

بعد يومين من هذا التحقيق وقف أمام مدير السجن ليتسلم حوائجه الخاصة مغادرا البوابة الكبيرة ليدخل في زحمة شوارع وأزقة المدينة.

موعد عند
شجرة الخروب

منذ الصباح وعند الظهيرة حيث تقف الشمس الحارقة في كبد السماء، تجد المرأة العجوز ظلا تحت شجرة الخروب الكبيرة وتظل من بعيد ترقب حواف الجبال المطلة على القرية إلى أن تنحدر الشمس خلف الأفق الأحمر فيما تنقطع أصوات السيارات عبر الطرق المحيطة بالقرية عندها تتحرك المرأة العجوز حاملة صرتها فوق رأسها مخلفة شجرة الخروب وحدها. لعل اليوم التالي سيأتي بإبنها الغائب في إحدى هذه السيارات الهادرة طوال النهار وها هي اليوم قد انحدرت مبكرا ... وقفت بقرب الطريق تسأل كل من يمر بها:

- هل رجع الرجال من الجنوب ؟

- يهز أحدهم رأسه لها دون أن ينظر إليها :

- (الحي يروح يا خالتي) وكثيرا ما تلحق بأحدهم مخاطبة :

- لقد وعدني بأنه سيرجع قريبا !!

غير أنهم في القرية يتحدثون عن الحرب ... استوقفت أحدهم يوما عند التلة قرب شجرة الخروب قال لها :

- يـا خالـتـي توقـف القـتـال وسـيرجـع الـرجـال إلى أهـلـهم قريـبـا ... هـنـاك مـن وصـل إلى القـريـة المجـاورة حـين سمعـت هـذا الخبر... قضت نصف يوم حتى وصلت وهنأت أم العائد وطلبت أن تقابله ... طمأنها بأنه يعالج من جروح في رجليه وسيرجع مع بقية الرجال الآخرين ...

وها هي قد طال وقوفها عند شجرة الخروب وغابت عنها شمـس الخـريف وانتصبت بدلهـا غـيوم رماديـة جافـة أخـذت تتكدس وتحيط بالجبال على الجانب الآخر من الوادي، أحست المرأة العجوز كما لو أن شيئا قد اجتث من داخلها وانقطعت عـن ذاتهـا، عـندها طأطـأت رأسـها متحاشـية الـنظر إلى هـذه الغيوم الكامدة وشعرت بأنها لن ترى ابنها مرة أخرى ...

فجأة انتبهت على صوت هدير السيارات تفزع الطيور العـائدة إلى أعشاشـها في أعـالي الأشـجار المطلـة عـلى الطـريق، تعبت مـن الوقـوف واتكـأت على جذع شـجرة الخـروب وأنزلـت رأسـها قـرب الأرض المعشوشبة ومـن عينيها هطلت دموع غزيرة تسللت عـبر مسـام الأرض وهـي تشـهق بهـا. عـندما خـيم الليـل دعكت عينيها وتوسدت صرتها ونـامت قرب شجرة الخروب .

في صبـاح اليـوم التـالي وجدهـا أحـد القـرويين دون حـراك ...

تم دفنها قرب الشجرة ومنذ ذلك الوقت اشتهرت هذه المنطقة بأشجار النخيل المثمر ذي اللون الأحمر ويروي أحد سكان هذه المنطقة القدامى بأن هذا النخيل قد نبت من دموع تلك المرأة العجوز وهي تنتظر ولدها الغائب ويختم حديثه :

- علينا أن نتعلم الإصغاء إلى ما لا يقال !!!

حكايات غير متقاطعة

أن تصمت عن قول شيء شاهدته أو قرأت عنه، عفوا أو قصدًا، فهو قد يؤدي إلى موت معرفة أو اندثار ثقافة توصل بها الحياة ... فكما كانت جداتنا تحكي لنا قصص السلاطين والعفاريت ... وكما قرأنا عن (سير الهلالية) و (عنتر) و (ألف ليلة)، هناك نصوص وقصص في ثقافة وتاريخ العرب لم تحك لنا، بل لم تعط حقها في النشر والذيوع ... ومرت أزمان ورحلت أجيال وانتهى زمن السرد والحكايات الجميلة ... وأصبح الصمت الآن صفة للعقل حتى بات النصح: ألا تتكلم في (الموضوع) فلا موضوع هناك يضحك أحدهم وهو يمتص دخان تبغه مواصلا: لا تحكِ كثيرا ناصحا: قل في الواقع ... واصمت لحظة ... ثم قل: لا شك في ذلك ... واصمت لحظة أخرى حتى تعرف (التيار) إلى أي (موجه) يقودك ... بعدها يمكنك أن تركب (الموجه)، وينهي صاحبنا نصيحته: "الناس صنفان ... أحدهما ينجو من الطوفان والآخر يغرق في كأس ماء"... غير أنني هنا قررت أن أحكي لكم بعضا من حكايات الزمن القديم وما قرأته من كتب وثقافة التراث التي قد نسيها البعض من انقطاع حكايات الجدات وطول زمن الصمت.

في زمن الدولة الأموية كان أحد قادتها وشهرته التاريخية (الحجاج بن يوسف الثقفي) ذات مساء بعد أن فرغ من مهمته بشنق (عبد الله بن الزبير) يتجول في شوارع الكوفة وحواري البصرة ينقب في قلوب الناس وينظر في عيون المارة ويفتش في آذانهم عمن يكلم نفسه كي يتم حبسه أو إعدامه أو نفيه ... كان مزهوا يترنم بلسان شاعر هكذا :

يا أهل الكوفة

لا يجتمع اثنان

أن يجتمعا فالثالث سوف يكون السيف

لا يلقي ! إنسان أذنه

إن سار وخلاها فسأقطعها

وسأقطع منه الكف

فلقد كان الأحرى به

أن يحشرها في أذنه

إشفاقا من صوت الحرف

ثم وهو يتنقل بين حواري البصرة هكذا :..

يا أهل البصرة

لن يذهب إنسان نحو المسجد

لتكون صلاة عشائه

من لم يلزم بيته

لم يلزم عنقه

ثم يصرخ على قبور الموتى هكذا ...

يا من ماتوا قبلي

أفلتم من بطشي

لكنـــي أقتلكم فيمن أنجبتم

يا من لن أبصرهم من يومي هذا

إنـــي في هذه الساعة أقتلكم

تقول الحكاية هل كان (الحجاج) يفعل ذلك بالناس حقيقة أم هي تجليات شاعر؟ ... ومع ذلك ترى الناس في زماننا هذا يموتون بشكل حداثي بعيدا عن تجليات (الحجاج بن يوسف الثقفي) .

تصف كتب التراث ترحيل: (ابو الوليد محمد ابن أحمد) وشهرته (ابن رشد): الفيلسوف والفقيه والطبيب والملقب أيضا بـ (الشارح) لشرحه كتب (أرسطو) بتكليف من (أمير الموحدين).

عندما جاءته المنية وهو في منفاه في مدينة طنجة سنة 1198 قرر حاكمها وضع جثمانه على بغلته ... التي كان يطوف بها وهو يلقي دروسه في أحياء طنجة ... غير أن الجثمان لم يستقر على ظهر الدابة التي أريد لها أن تنقله عبر الصحراء إلى موقع رأسه مدينة (قرطبة) حيث يراد له أن يوارى التراب لتنساه العامة، وتمضي القصة في وصف نقل جثمان فيلسوف العرب (المنسي) فاقترح أحدهم أن تحشر (كتبه ومؤلفاته) في تابوت موازٍ لثقل الجسم المسجى على ظهر البغلة فعادل التابوت فوق ظهر البغلة المحمل بالمؤلفات تابوت صاحب المؤلفات وعند مرور الموكب المهيب، المؤلفات وصاحب المؤلفات أمام جمع من عامة الناس عبر بوابة مدينة (طنجة) لتوديع عالمهم الجليل (قاضي قرطبة) الذي نفاه حاكمها بعد أن عرفه عن طريق (ابن طفيل) هكذا عاد صاحب المصنف الفلسفي الشهير (تهافت التهافت) مع شروحه لكتب (أرسطو) في

خشوع مهيب بينما التابوتان يهتزان فوق ظهر الدابة، برز من بين الحشود شاعر حاكم (طنجة) يودعه بهذه الأبيات :

الآن قد أيقن ابن رشد

أن تواليفه توالف

يا ظالما نفسه تأمل

هل تجد اليوم من توالف

وعبر الموكب المهيب الصحراء، حيث دفن الجسد في مدينة (قرطبة) غير أن المؤلفات رحلت إلى الشمال حيث وجدت من توالف واطمأن حاكم (طنجة) مع شاعره وفقهائه ومن يومها بقيت الحشود فاغرة فاها وهي تتلقى علومها عبر الشمال حيث أعيد ترجمة ما في التابوت الآخر من مؤلفات، فيما نسي العرب فيلسوفهم (ابن رشد) حتى يومنا هذا ولم يبق في بلاط العرب إلا كتاب (الفاشوش في أحكام قراقوش) ...

في غرفة التحقيق

كان يجاهد كي يرفع جفون عينيه محدقا في جدار الغرفة الخالية من الأكسجين بفعل الرطوبة العالية .

تكرر السؤال للمرة الثانية :

- ما رأيك في البنية التحتية؟ ...

حدق في وجه المحقق الممصوص كثعبان جائع، وحرك فكه الأسفل مجيبا:

- معدومة ... لا توجد بنية تحتية ولا فوقية !!!

- سنأتي على البنية الفوقية لاحقا ... أجبني على السؤال ...

- يا سيدي البنية التحتية لا يهتم بها أحد ... فهي مثل الناس المهمشين ... مثل شوارعنا الخلفية، منسية، الاهتمام فقط منصب على الميادين والشوارع العريضة ... أعمدة الضوء الباهرة على الجانبين وأسلاك الهاتف المستقيمة متواصلة والطريق يلمع كأنه مدهون بالزيت، هناك، حيث تمرق سيارات الأكابر حديثي النعمة ...!!

بانت على وجه المحقق خيبة الأمل في الحصول على إجابة ... رمى بالقلم ومزق الورقة للمرة الثانية ... وخرج من الغرفة ...

سقطت جفونه من جديد لتطفئ وميض عينيه ... أخذته سنة من نعاس لذيذ وهو مسترخي على المقعد الخشبي بعد ليلتين لم يذق فيهما النوم ... داهمه حلم ... رأى أفعى تجوب شوارع المدينة ... تمتص عيون الأطفال في الشوارع الخلفية وتختفي في بالوعاتها المفتوحة أبدا ... شاهد في الميدان أحدهم ينزل من سيارته المزينة بالرسوم والأعلام رافعا يده على إذنه (بالنقال) قائلا:

- نعم سيدي كل شيء يسير على ما يرام ... الشوارع نظيفة ... الميادين ترفرف من فوقها الأعلام والأضواء الكاشفة تبهر المارة والحشود جاهزة للانطلاق عند ساعة الصفر للاحتفال بعيدها !!!!

انتفض من على المقعد ... فتح عينيه ... وجد الرجل الممصوص يقف أمامه صارخا بوجهه :

- قم حرك رجليك واطرد النعاس ...

وبلهجة مغايرة سأله :

- ما رأيك بأسواق الانفتاح؟ !!

حار في الإجابة ... صمت ... كرر عليه السؤال بصورة أخرى ...

- أقصد هذا النشاط الفردي الذي يمثل حرية المستهلك في اختيار ما يريد ؟!!

- عظيم ... هذا التنوع في العرض !!!

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أنه اختصر المسافة الحضارية بمعرفة كل هذه المعدات والمواد الاستهلاكية التي تهم المواطن والمستهلك ...

- لم أفهم بعد هذه الإجابة ...

- أقصد أنها نقلة حضارية لمعرفة ما يدور حولنا ... هذه النقلة وفرت على المواطن المعاناة باكتشاف حاجته بسهولة العرض ...

علق المحقق :

- إجابة مراوغة ... بل أظهنا ساخرة ...

بصوت خافت علق الآخر :

- هي في الواقع إجابة تلائم أفكار أصحاب البنية الفوقية !!!

أقفل المحضر وأشر بعبارة :

- يعاد التحقيق معه مرة أخرى غدا !!!

فنتازية عربية

تقذفك الحيرة في متاهات السطوح ... تصطدم بالرجال المسلوخين من جلودهم الصفراء وقد تعرى دمهم المزيف ... تلتفت يمينا ويسارا على أصوات مبحوحة تعوي مثل ذئب جائع ... تخرج من كوة السطح على أصوات مزامير عربية ... ترقص للسلطان ... تفرك يديك ... يخرج من بينهما دود أسود من هول التصفيق ... يلتفت إليك حراس السلطان ... تهرب خارج السطح ... تعوم في الهواء الطلق ... تقضم أظافرك من الندم ... يسخر منك أطفال الحجارة ... تنادي بأعلى صوتك ... يسقط الصوت تحت قدميك ... شامتا فيك ... في الصيف يهدر البحر من تحت سطح الأرض من هول القر ... تقفز الأسماك الصغيرة في أفواه الحوت الكبير ... من الخوف ... وعلى وجه البحر يطن ذباب ... يخرج عبد البحر حاملا حزمة السواري المتكسرة عبر سني الشتات ... ناشرا أسماء الغرقى والشهداء على ألواح موسى قرب حافة الجبل ... هناك الجيل الأول ينظر مشدوها إلى المرأة العجوز تحت سطح الجبل ... تتعرى وترقص رقصة الموت ... تضع قدميك على أول الطريق ... تهرب من أمامك

الحشرات ... تخنقك رائحتك الكريهة ... معلقا في الهواء تدور وحدك في الميدان ... تنطفئ من حولك الأضواء ... تخرج لسانك الطويل تنشر عليه الكلمات الميتة ... لا ينصت لك من في الميدان ... تتفرس وجوههم ... عين واحدة ... وأذن واحدة ... ويسيرون برجل واحدة ... لكن صوتا يناديك: أتهرب من أنصاف الرجال ... تتوقف ... لا تجد أحدا من حولك في الميدان ... تضحك وحدك ... ترقص وحدك ... تغني وحدك ... تبكي وحدك ... تهمس وحدك ... حتى أنصاف الرجال اختفوا !!! تعدو في الشوارع الخلفية وحدك ... تهذي وحدك ... فلسطين عربية ... فلسطين عربية ... وأنت تلوك العلكة الأمريكية ... وحدك .

مشاهدة من
ثقب الإبرة

أثقب سقف غرفتي ... أنادي جاري عبر عين الإبرة ... كل شيء يسير على ما يرام ... ما عليك إلا أن تنتظر دورك وتتجمل بالصبر... أليس الصبر مفتاح الفرج؟ ...

فأينما تسير وتلتفت حولك تشاهد ملصقات وإعلانات تبشر بالخير الوفير فأنت إنسان سعيد تعيش في بحبوحة يراها كل الناس الوافدين على مدينتك الفاضلة ... الذباب الذي يحط على وجهك منذ الصباح متنقلا من على حوافي البالوعات المفتوحة، كبوابات الحدود ... ما هو إلا فراشات بيض تحط على خدود زهرات البساتين ... فكل شيء يسير على ما يرام !! من ثقب الإبرة ترى السيارات تحمل الناس إلى عملهم كل صباح هي ذات السيارات التي تحمل الخراف من أطراف المدينة إلى السوق كل صباح أيضا ... أليس كلها كائنات حية، تتنفس هواء المدينة المعطر وتقضي حاجاتها على الطرقات ... إذا كل شيء على ما يرام، أنادي عبر عين الإبرة ... أنت لست محظوظا هذا المساء فطنين الذباب غلب طنين التلفاز... في الصباح لا تجد الحافلة المبجلة التي تنقلك إلى عملك كما لا تجد جريدتك

التـي تمطرك بـالأخبـار المبرمجة، كذلك لا تحصل على حصتك من الحليـب المعروض على قـارعـة الطـريق مـع السمك والتبغ ... فكل شيء يسير على مـا يـرام في ذلك الصباح ... أنـت الذي تأخرت ... السبب ذلك (التلفاز) ... والبعوض الذي أكل جزءا من وجنتيك وأنـت تعبر الشوارع والأزقـة النـاعسة عـلى صـوت خريـر الميـاه الآسنة ... تطير من الفرحة عند سماعك صوت موظف المصرف ...

وأخـيرا وصـل مرتـبك وهـو قـابـع في حسـابك مـنذ الصبـاح البـاكر ينتظر ... أنت الذي تأخرت هذا الصباح...

تـنش عـن وجهـك الذبـاب والديـون ولا يـبقى لـك إلا الانـتظار مـن جديـد قـدوم (الـذي يـأتـي ... ولا يـأتي) ... أخـيرا تقـرر أن تـرفع قدرتـك الإنتـاجـيـة ... تخلـع ملابـس الصـبـاح وتعـتـمر ملابـس المسـاء واقـفـا عـلى حـافـة الطـرقـات العـامـة تـنـادي عـلى بضـاعة ادخـرتها مـن جمعـية أو منشـأة ... استوردتهـا مـن وراء البـحر ... لا يهـم طالمـا كل شـيء عـلى مـا يـرام ... المهـم ألا تـبقى إلى منتصـف الـليل عـندها تـتهم بـأنك تبيـع بضـائع مهـربة أو مسروقة ... كذلـك لـيس مهمـا أن تكـون جالسـا في مكتـب خدمـات أو واقـفـا تعـرض سيارات للبيـع أو حتى تعـرض أرض المقابـر المهجـورة فـهي كـلهـا لا يسـري عليهـا

قانون السرقات في النهار ... ألم أقل لك أن كل شيء يسير على ما يرام ... تمشيا مع قاعدة أن صيانة هواتف المدينة يتم في النهار أثناء الدوام الرسمي وبكل سرعة وبدون مقابل !!

فهذا زمن لم يعد يتذكر الناس فيه ... أن (لوركا) مات مقتولا برصاص الفاشست في ليلة غاب فيها القمر في غرناطة ... وأن (القدس) اغتصبت والناس نيام ... وأن (عمر المختار) قد بيع في الصباح والشمس حزينة ... وأن (خليل حاوي) انتحر كي لا يرى حبيبته (بيروت) تستباح أمام ناظريه وأن .. وأن .. وأخيرا نحن (العرب) ننزف دما ونفطا ... ومع ذلك نهتف صباحا ومساء ... عاش الأمير ... عاش الوطن ... فكل شيء يسير على ما يرام ... من ثقب الإبرة لم يبق إلا الاستمتاع بمشاهدة الفضائيات ... أليس كذلك !!!

الحلم الذي يحدث

فيما يشبه الحلم وأنا نائم ... إذا برجل يهزني من كتفي ... استويت في جلستي وأنا أنظر إلى هذا الذي أيقظني ... من أين جاء؟ ... وكيف دخل غرفتي؟ ... وهل هو من الإنس أم من الجن؟ ... فزعت وأنا أنظر إليه متفرسا ... فإذا هو مستقيم القامة أبيض الوجه جميل الطلعة ... شعر رأسه أسود كث ... قلت له وأنا بين نائم ومستيقظ ... من أنت؟ وكيف دخلت الغرفة؟ ... قال في نبرة أخاذة: أنت لم تعرفني ولكني أعرفك وألتقي بك في الزحام ... ازدادت حيرتي وعدلت من جلستي على السرير وقلت فيما يشبه الهمس: على كل حال سأراجع نفسي الآن عن أي شيء تتحدث يا هذا وماذا تروم مني؟ ... قال وهو يبتسم هذه المرة: نحن يا سيدي أربعة قد تخاصمنا حول أمرنا والكل يرمي باللوم على الآخر وكل يدافع عن نفسه بأنه الأكمل والأحسن من رفيقه الآخر وبعد طول خصام اتفقنا على أن نحتكم عند أول إنسان في طريقنا، وها أنت أول إنسان يكون حكمه نهاية لخصومتنا وعنادنا ... فقلت وأنا أكتم حيرتي مرة أخرى متسائلا: كيف؟ لكنه قاطعني بقوله: ألم أقل لك بأنني

أعرفك ... قلت متسائلا: تفضل ... وماذا تريد مني؟ قال مقترحا اتفقنا على أن نقدم أنفسنا لتقول رأيك في كل واحد منا وبصراحة ... قلت مختصرا هذا الجدال: من أنت؟ قال أنا "العقل" ماذا تقول في؟ ... تنهدت وقلت: إنك عين الحكمة أنت الذي ترشد للخير وتنير الطريق وتحفظ اللسان من الزلل ومع ذلك عندك عيب واحد كبير... قال مستغربا وقد اختفت ابتسامته: وما هو هذا العيب؟ ... قلت: إن عيبك هو أنك وقت الزحام والمواجهة تنسحب وأحيانا تتأخر في الحضور أو تختفي لتترك المجال "للغضب" أن يفوز... انسحب صاحبنا " العقل " في صمت واختفى وراء باب الغرفة بسرعة ... دخل رفيقه الثاني مرتديا ملابس فضفاضة ومزركشة بألوان زاهية وعليه مسحة من الوجاهة والنعمة يميل إلى السمنة ... قال ضاحكا بصوت رقيق: أنا "البركة" ... ماذا تقول عني؟ ... قلت: إنك والله النعمة والخير والرخاء والزاد الحسن ... وقبل أن يدور ويختفي قلت له: قف ... إن لك عيبا أنت الآخر وهو عيب خطير... لملم ثوبه الفضفاض حوله وقال مستغربا: وما هو عيبي هذا الخطير... قلت: عيبك أنك لا تختار الرجال الذين يستحقون بركتك بل توزع هذه البركة على كل من هب ودب من الناس دون تمييز أو اختيار... إنك مثل النخلة العوجة ... اختفى هو الآخر كصاحبه خلف الباب

ليدخل الرفيق الثالث ... وإذا به يختلف اختلافا كبيرا ... ضعيف ولونه يميل إلى الصفرة ... صوته هادئ لا يكاد يسمع فلم أستطع أن أتبينه حتى اقترب مني وهمس على استحياء: ألم تسمعني جيدا لقد قلت لك: أنا "الصبر" ... فقلت وأنا أبتسم له: إنك زينة الأخلاق والرفيق الذي يتمناه الكل لنفسه ويدعو صباحا مساء أن يكون من نصيبه ليفوز برفقته ... فاستراح المسكين لهذه الشهادة والإطراء الذي لم يخاطبه به أحد من قبل وجها لوجه كما يبدو ... وأرد أن ينسحب ... لكني استوقفته بإشارة من يدي ... ألم تسأل نفسك لما تعيش وحيدا دائما رغم ما يظهره لك بعض الناس من لطف المعاشرة في كلامهم لك ... صمت وأطرق إلى الأرض كأنه يعرف الجواب ... قلت له وأنا ابتلع ريقي: عيبك أنك صعب الوصال والمعاشرة لا يحتملك أحد ... إن رفقتك مرة كالحنضل ... قليل من الرجال يبلع المر... اختفى هو الآخر من قبل أن أكمل كلامي وكأنه مل (نفسه) ... دخل الرفيق الرابع بحيوية ونشاط وقد شد الباب بقوة وهو يتقدم بخطى ثابتة ناظر أمامه بثقة غير أن ملابسه تبدو رثة ... مد يده مسلما بقوة وقال: أنا يا سيدي " العزم " ... فقلت له مرحبا ... لقد افتقدتك منذ مدة ولم أرك مع أحد حتى ظننت أنك هجرت الديار... قال بأسى: لقد تخلى عني كل الرجال وربطوا صحبتهم مع غيري ...

مع " الهلع " لذا عودت نفسي ألا أقيم في مكان واحد معه ... قلت له: إنك والله صادق العزم صحيح أنك نعم الرفيق الودود ولكني أعرف أن الناس هذه الأيام لا تريد رفقتك لأنك في نظرهم قد تؤذيهم وهم الآن يلهثون وراء "رجال" آخرين يلوحون لهم برايات براقة تذهب بعقولهم.

نهضت على ارتطام باب غرفتي من شدة الريح بالشارع المقفر، كان صوت أحدهم ينادي على بضاعته الكاسدة.

علبة كبريت

بدا له أول الأمر أن هذا العمل لا يستطيع القيام به، ولكنه ما لبث أن أقنع نفسه بأنه يجب أن يتم، فهو صاحب الفكرة فضلا عن أنه تحمل مسئولية القيام بها، كان يتحين هذه اللحظة قائلا لنفسه بأنه سيأتي اليوم الذي يقوم فيه بمثل هذا الواجب، ها قد حانت اللحظة إذا.

كان هذا الحوار يتنازع داخله عندما خلا الجو وذهب أفراد الجماعة كل إلى بيته بعد أن تم رسم خطة تنفيذ العمل بكل تفاصيله وأشعل سيجارته من مصباح (الجاز) التي ترتعش بلهبها الأرجواني من طول فترة اتقادها هذه الليلة ... عاد يناقش نفسه من جديد: من أجل من يتجشم هذه المخاطرة ... لماذا لا يقوم بها غيره من أفراد المجموعة ... فهو الآن مسئولا عن أسرته، أمه العجوز، وأخته الأرملة التي فقدت زوجها في إحدى مظاهرات العمال ضد القاعدة البريطانية، ومنذ وفاة والده الذي كان يعمل خفيرا في أحد معسكراتها وهو المسئول عن هذه الأسرة مما جعله يقطع دراسته الثانوية منذ أربع سنوات وهي الآن تعيش على مرتبه الضئيل:

كان قد سمع بأخبار هذه الجماعة أيام أن كان طالبا يشارك في المظاهرات ويتخيل نفسه واحدا منهم، لكن والده كان دائما يخيفه بنصائحه مستشهدا بمصير زوج أخته غير أن والده قد مات وماتت نصائحه وهو الآن على صلة بهذه الجماعة ويعمل معها ... لقد عرفه بهم نفس الشخص الذي سيرافقه الليلة في هذه العملية والتي قبل مسئولية تنفيذها .

أحسن بخواطره وهواجسه تتصاعد لتضغط على أعصابه ... أخذ نفسا طويلا من سيجارته وأرسله عبر فضاء الحجرة بنية طرد هذه المخاوف إلا أنه أكثر وطنية من غيره ... ربما، ولكن قطعا يوجد من هو أكثر وطنية ... ومع ذلك يشعر في قرارة نفسه بأنه هو دون غيره ... لعله بهذه الوسيلة يهرب من مواجهة الحياة التي تطالبه كل يوم بالتزامات جديدة أو يصبح بطلا يتكلم عنه الناس ويخلد ... ما فائدة الخلود بالنسبة إليه ... ولكن من أدراه بأنه سيقضي في هذه العملية لعله يخرج منها سليما كما تمنى له رفاقه من أفراد الجماعة عند مغادرتهم منزله هذه الليلة ... هكذا ختم أحد أفراد الجماعة اللقاء بقوله: أرجو يا صالح أن يتم كل شيء في ميعاده بأسرع ما يمكن مع المحافظة على حياتك على الأقل من أجل أسرتك ... وإذا حدث

سوء لا قدر الله فإننا سنقوم مقامك نحو الأسرة اطمئن من هذه الناحية وبالتوفيق.

شد على أيديهم يودعهم كأنه آخر لقاء ... تذكر الآن أن صعوبة العمل تكمن في اللحظات القريبة من ساعة التنفيذ ... وإلا فلماذا تنتابه كل هذه الهواجس ...

نظر إلى ساعة يده فوجدها الواحدة والنصف ليلا ... همس: ما يزال هناك وقت كاف ... يجب التأكد من المواد التي تحتاجها العملية ومدى صلاحيتها ... دلق ما بالكيس وبدأ يقلب في محتوياته ... هذه علب المفرقعات ... هذا خيط الفتيل ... إنه قصير ... لا بد أن يكون طويل حتى يأخذ وقت كاف يمكنه من الانسحاب سريعا ... وهذه علبة الكبريت التي يحتاجها في إشعال خيط الفتيل ... أخذ ينظر إلى هذه الأشياء وهو يبتسم مخاطبا نفسه: أبهذه المواد البسيطة المكومة بجانبه يستطيع نسف مستودعات البنزين التابعة للجيش البريطاني؟ ... نظر إلى ساعته مرة أخرى متمنيا أن تقف عقاربها ... يود ألا يفاجئه شروق الفجر... أخذت دقات قلبه تزداد عندما أتى على ذكر الفجر... تمنى أن يكون قد عاد من مهمته لينام ... إنه يحس بثقل رأسه من كثرة ما ظل يقظا ... لا يستطيع النوم ...

ارتدى حذائه الخفيف الرمادي كلون ضوء الفجر وأحكم لف الفتيل حول معصمه ووضع علب المفرقعات في جيوب سترته ... أما علبة الكبريت فأبقاها في يده ليستعملها عند الحاجة ... أخفق ضوء مصباح (الجاز) التي مازالت ترتعش بضوئها الباهت وتسلل من حجرته بحرص شديد وهو يمشي على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ أمه وخرج من باب منزله ... تنفس بارتياح وهو يستنشق النسيم الرطب الذي لفح وجهه المكدود ... أسرع في خطاه نحو الشارع العام فوجد رفيقه ينتظره عند رأس الشارع ... تبادلا النظرات وأسرعا الخطى وهما يتحاذيان إلى أن خرجا من الشاعر العام وقد لفهما الهدوء المخيف بهذه الساعة المتأخرة من الليل ... قال رفيق صالح محاولا شرخ هذا الهدوء بصوت متكسر: أرجو أن تكون قد أحضرت كل معدات العملية ... هز صالح رأسه بالإيجاب دون أن ينظر إليه .

واصلا سيرهما وكل ينصت إلى صوت حذائه كأنه يحصوا خطواته على هذه الأرض.

بدا صالح شاغلا نفسه المضطربة ... كان يشارك في إعداد خطط المقاومة ويرسم المواقع ولكنه لم يسبق له أن شارك فيها عمليا ... هذه المرة الأولى التي قرر أن يقوم بهذه المهمة ...

انتبه إلى رفيقه يهزه من كتفه هامسا: انظر... وصلنا ... لاحت لهم من بعيد أضواء المعسكر بلونها الأصفر تعكس أشباح الجنود داخله ... اقتربا من الأشجار الكثيفة المحيطة بالمعسكر وارتميا على الأعشاب الرطبة التي بللها الندى وأخذا يزحفان بحرص شديد إلى أن وصلا بقرب الأسلاك الشائكة عند إحدى زوايا المعسكر... القيا نظرة حوليهما ... أخرج رفيق صالح مقبضا لقطع الأسلاك ... لف حول أسنان المقبض قطعة قماش أحضرها معه لهذا الغرض وبدأ يقطع السلك المتشابك دون أن يحدث من جراء ذلك صوتا مسموعا إلى أن أحدث فتحة تسمح بدخول شخص ... فجأة توقف عن القطع وأشار إلى صالح دون صوت أن أدخل ... نظر صالح إلى رفيقه ثم إلى ساعة يده فوجدها الثانية والنصف ... رفع يده في وجه رفيقه فاستراح هذا وهدأ اضطرابه بعد الإجهاد الذي بذله في قطع السلك وهو يحسب أو الوقت قد تجاوز الثالثة صباحا ... أخذ يرقب صالح الذي بدأ يوصل خيط الفتيل بالعلب على مسافات في دقة خبير بهذه الأشياء ورفع طرفي الخيط فبانت العلب كالعقد وعلقها حول رقبته ثم لف باقي الخيط الطويل حول وسطه وأخرج رفيقه سكينا لامعا من جيب سترته ومده له ... دس صالح السكين في جيبه وشد على كتفه مودعا ... نظر رفيقه إليه بثقة وهمس له: أرجو لك التوفيق .

اخترق صالح الفتحة في هدوء وارتمى على العشب وأخذ يزحف على بطنه كثعبان يتصيد فريسته ...

كان الحرس في هذه اللحظة ينسحبون ليحل غيرهم وهي اللحظة الحاسمة التي يتوقف عليها نجاح العملية ... ما أن ابتعد الحرس عن أماكنهم مولين ظهورهم للأسلاك الشائكة حتى بدأ يتحرك في حذر وقد وضع يده حول رقبته كي يمنع احتكاك العلب ببعضها واستمر يخطو مسرعا محتميا بالشجيرات القريبة من بعضها إلى أن وصل أول مستودع للبنزين فيما الحراس الأخيرين أخذوا مواقعهم مولين ظهورهم داخل المعسكر.

سحب العلب من حول رقبته ووضعها أمامه ... أخذ أول علبة بها رأس الخيط وثبتها قرب المستودع ... بدأ ينتقل من مستودع إلى آخر وانتهى من ردم كل العلب في مكانها قرب المستودعات الخمسة ساعده في ذلك أن الخزانات كانت قريبة من بعضها مما مكنه من العودة إلى المستودع عند أول علبة وأمسك برأس خيط الفتيل الممتد وأخرج السكين وقطع به رأس الفتيل حتى أزال من عليه الغلاف الشمعي الذي يغطي المادة القابلة للاشتعال ... توقفت يداه فجأة عن العمل وهو يبحث

فوق العشب وفي التراب وفي جيوب سترته عن علبة الكبريت ... لعله تركها عند مدخل الفتحة، تذكر أنه كان قابضا عليها بيده ... ما العمل ... ونظر أمامه إلى الشجيرات القريبة التي كان يجري بينها ... وتذكر بأنها سقطت من يده عند تلك الشجرة الأخيرة ... أمسك برأس الفتيل وزحف راجعا وهو يحدق في أشباح الحرس مولين ظهورهم إليه ... وقرب الشجرة الصغيرة كانت علبة الكبريت مستلقية كسلحفاة متخمة ... أمسك بها فيما العرق يتصبب من كل جسمه ... ولأول مرة كره ضوء الفجر وهو يتطلع إلى السحب البيضاء ... تحسس رأس الخيط بيده وتمدد على بطنه وقد غطى العشب معظم جسمه ... وأخرج ثلاثة أعواد ثقاب من علبة الكبريت وأوقدها دفعة واحدة على غلاف العلبة فأصدرت صوتا كفحيح ثعبان ... وفي لحظة كانت النار تسري عبر خيط الفتيل الذي تركه على العشب يحترق مصدرا رائحة نفاثة ... انتصب على ركبتيه استعدادا للجري كأنه في وضع سباق للعدو ينتظر الإشارة موليا ظهره للخزانات ... فجأة مزق الهدوء صوت أول علبة للمفرقعات ... التفت الحراس خلفهم على الصوت وأطلقوا الرصاص في كل اتجاه ... بعدها سمع دوي هائل واشتعلت النار في أول مستودع ... أخذت الانفجارات تتوالى بسرعة .

أشرقت شمس ذلك الصباح على المعسكر وقد تحول إلى صورة من صور المعارك الحربية بدخانه الأسود المتصاعد ... ولم يبق من هذا المعسكر إلا جنديان وضابط كانوا قد احتموا بالخندق ... خرجوا وقد صعقتهم المفاجأة وإلى جانب إحدى الأشجار المحترقة وجدت جثة محترقة وبقربها بقايا سكين ...

نشرت صحف ذلك الصباح خبرا جاء فيه: "... وقد حاول هذا اللص دخول أحد مخازن المعسكر فأطلق عليه الرصاص وقد أصابت رصاصة طائشة أحد مستودعات البنزين فشب على أثرها حريق في المعسكر" ...

الفهرس



يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.